الفصل الثانى

التاريخ كعلم ومنهج

اولا : التاريخ بين العلم والفن والأدب :

للعلم معنيان اذا قيل باطلاق قصد به اى فرع من فروع المعرفة البشرية ، واذا قيل بمعناه الضيق أريد به العلم الطبيعى ، فالعلم الطبيعى يطلق على كل دراسة تتناول الظواهر الجزئية أما العلوم الانسانية فتطلق على الدراسات المنهجية المنظمة التى يمضى الانسان فى دراستها مع صرف شىء من عنايته الى توخى الحقيقة ، وان يؤسس دراسته على حكم ناقد وفيما يلى نعرض لموقع التاريخ بين العلم والفن والأدب .

١ ــ التاريخ باعتباره علما :

(أ) دار نقاش طويل حول الكتابة التاريخية ومكانها بين العلم والفن والأدب ، واختلف فيه المفكرون فمنهم من ذهب الى أن التاريخ علم بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ومن هؤلاء الدكتور بيورى (١) Bury الذى ذكر فى محاضرته التى القاها فى الثالث من يناير ١٩٠٣ « أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل » واللورد اكتون Acton الذى عرف العلم بأنه « اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث تنشأ عن اجتماعهما وحدة عامة على هيئة مبدأ او قانون (٢) والاستاذ هكسلى Huxley الذى قال « أفهم أن المقصود من كلمة العلم أنها نوع من أنواع المعرفة التى تقوم على الدليل والتدليل

---

(١) J. B. Bury (١٨٦١ ــ ١٩٢٧) اشهر مؤرخى انجلترا فى الربع الأول من القرن العشرين . عمل استاذا للتاريخ الحديث بجامعة كمبردج ، وساهم فى اصدار مجموعتى كمبردج للتاريخ القديم والوسيط .

evidence and reasoning وبمعنى آخر فأن العلم هو « كل معرفة تقوم على الدليل والاستنباط » والدكتور الكسندر هل Alex. Hill الذى قال ان « كل معرفة معقولة فهى علم » والاستاذ كولنجوود الذى أوضح ان « العلم بصفة عامة يتألف من تركيز الجهد فى شىء لا نعرفه لنحاول أن نتعرف حقيقته .. وهذا هو المعنى الذى نقصده من قولنا أن التاريخ علم » (٣) والاستاذ كارل بيرسون Karl Pearson الذى قال « أن وظيفة العلم هى تصنيف الحقائق والتعرف على أهميتها سواء فى تتابعها أو بالنسبة الى بعضها البعض ، والفيلسوف الامريكى تيجارت Teggart الذى عرف العلم بانه ليس الا البحث المنظم عن الطريقة التى تتضح فى احدى الظواهر .

وهكذا يستند هؤلاء وغيرهم الى تعريف العلم بأنه المعرفة المنظمة المبوبة المقننة ويدخلون فيها التاريخ .

وقد تصدى لهذا الرأى علماء الطبيعة وفلاسفتها ومن هؤلاء « جينز » (٤) الذى قال ان « من السخف ان نفكر فى التاريخ على أنه علم بالمعنى الصحيح » وساندة فى هذا الرأى الفيلسوف الفرنسى أوجست كونت (٥) ، الذى يعلل الاشياء بالمشاهدة والتجارب تأييدا للفروض كما ساندة فى رأيه أيضا الاستاذ كوفمان (٦) .

---

(٢) Lord Acton (١٨٣٤ — ١٩٠٢) عملا استاذا للتاريخ الحديث بجامعة كمبردج ، وكان له فضل كبير فى تقدم علم التاريخ بانجلترا يضاف الى ذلك أنه صاحب الخطة التى اتبعت فى اصدار مجموعة كمبردج للتاريخ الحديث .

(٣) م . ج . كولنجوود : فكرة التاريخ — ترجمة محمد خليل بكر — القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦١ ص ٤١ — ٤٢ .

(٤) W. S. Jevons عالم انجليزى (١٨٣٥ — ١٨٨٢) متخصص فى الاقتصاد والمنطق واشهر مؤلفاته أصول العلم Principles of science

(٥) أوجست كونت ١٧٩٨ — ١٨٥٧ مؤسس الفلسفة الوضعية التى تعتمد على نتائج العلوم الطبيعية الحديثة .

(٦) حول تفاصيل ذلك انظر :
Koufmann : Methodology of the Social Sciences .

ويستند هؤلاء الى أسباب عديدة منها :

١ — ان مادة التاريخ تختلف عن مادة العلوم من حيث كونها غير ثابتة ولا قابلة للتحديد يضاف الى ذلك أن المؤرخ لا يشاهد الحوادث أو الظواهر التى يدرسها بطريقة مباشرة ، وانه يعجز عن اخضاع الوقائع التاريخية للملاحظة والتجربة والمشاهدة والفحص ، والمعاينة وانما يعتمد فيما كتبه على النقل عن الآخرين او السماع عنهم أو الرجوع الى الوثائق التى دونها من شاهدوا هذه الحوادث أو شاركوا فيها أو سمعوا عنها ، وكثيرا ما يشوه البعض الحقائق عندما ينقلها أو يسجلها ، كما انه يحدث فى بعض المجتمعات وخلال ظروف معينة ان يقوم البعض بتشويه تاريخ بلده ، واحيانا يقوم بطمس حقائقه كل هذا يجعل الفارق كبيرا بين التاريخ باعتباره علما والعلوم الأخرى ، ويبعده عن صفة العلم .

(ب) انه لا ينبغى أن يطلق اسم العلم على دراسة نظرية كالتاريخ الا اذا تمكن المؤرخ من الكشف عن بعض القوانين العامة التى يمكن تطبيقها على الظواهر مهما اختلفت أماكنها وازمنتها أى ان يتوصل المؤرخ الى القوانين التى تمكنه من التنبؤ بالحوادث قبيل وقوعها كما يفعل علماء الأرصاد الجوية وعلماء الطبيعة وغيرهم ! ولما كان من الصعب التكهن بالمستقبل فى التاريخ واعتباره من الأمور المستحيلة وخاصة أن نسبب الناس فى توجيه التاريخ ليس بيسير ، وان من الممكن أن ننشأ عن بعض الاحداث العرضية اليسيرة أشياء تؤدى الى نتائج غير متوقعة كفيلة بتغيير مجرى الأمور تغييرا يتعذر معه اخضاعها لقانون علمى ثابت لذلك كله لا يصح أن يكون التاريخ علما ، وانما يمكن أن يكون أقرب الى الدراسات التأملية أو الى الرياضة الذهنية .

(جـ) انه من الصعب على المؤرخ أو الباحث فى التاريخ أن يتجرد من أهوائه وميوله ومصالحه ، بل غالبا ما ينظر الى موضوع دراسته من خلال عقيدته وثقافته وعادات وتقاليد وطنه . وهذا يفقده الموضوعية الخالصة ويجعل بحثه يتأثر بعوامل ذاتية على حين أن الباحث فى العلوم الطبيعية يستطيع بسهولة ويسر أن يتجرد من ميوله واهوائه فتكون نتائج بحثه موضوعية وليست ذاتية .

(د) أنه من المستحيل اخضاع الدراسات التاريخية للضبط الكمى أو تصويرها بالمعادلات الرياضية الدقيقة كما يحدث فى العلوم الطبيعية . وهذا يجعل الدقة فى نتائجها نسبية ويتعذر معه عدها علما .

(هـ) انه لا يوجد اتفاق بين المؤرخين على ما هو هام من الوقائع وما ليس بهام .

وللرد على مجمل هذه النقاط يمكن القول ان التاريخ قد أخذ فى التخلص الى حد كبير من طابعه القديم الذى كان يغلب عليه ، وانه بدأ يقترب من العلوم الاستقرائية الى حد كبير أيضا . كما أن المؤرخين أصبحوا لا يتوقفون عند وصف الحوادث الفردية من الوجهة الزمنية فحسب بل انهم يقومون أيضا بمحاولات للكشف عن العناصر الجوهرية فى النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها ، كما انهم يقومون باعداد تجارب الأمس وتحليلها للاستفادة منها فى الوقت الحالى .

وهذا يعنى أن التاريخ علم منهجى يهتم بظواهر خاصة محددة بعينها وخاصة انه يبحث فى أحوال الناس وتجاربهم ، وتلك الأحوال والتجارب يمكن أن يفهمها المؤرخ معتمدا على قدراته العلمية ، فيستطيع أن يتمثل الماضى ويفسره تفسيرا عقليا أو نفسيا ، يضاف الى ذلك أن المؤرخين أخذوا فى تطبيق أساليب المنهج الاستقرائى فى بحوثهم ، وأبرز الأدلة على ذلك قيامهم بتحليل الوثائق التاريخية وتمحيصها واخضاعها للبحث كما تخضع المادة لتجارب العلماء ، فصار علم التاريخ يعتمد على تقديم الدليل على الرأى فيما **جرى من أحداث .**

والى جانب ذلك يمكن القول بأنه قد مضى الزمن الذى كان يعتمد فيه المؤرخون على طريقة النقل والسماع أو سرد الروايات للمتعة والاستمتاع ، بل تعدى ذلك الى الطرق العلمية ، فأصبح المؤرخ المعاصر لا يقبل الحدث الا بعد تمحيصه وغربلته ومقارنته بالروايات المعاصرة ، ومحاولة الكشف عن العلاقات السببية التى أدت اليه ، وتفسيرها . هذا بالاضافة الى أن المؤرخ يقوم بتنقية الوثائق كما تنقى الحبوب من الحصى والقش حتى يستطيع أن يروى الحقائق بدقة وصدق ، ومن هنا فانه يجب التوسع فى مفهوم العلم حتى لا يخرج الكثير من المواد النظرية من عداد العلم . ويكفى اسناد صفة العلم الى أى موضوع يقوم الباحث بدراسته

بطريقة يتوخى فيها الحقيقة ، ويقيم بحثه على حكم ناقد وتفسير وتحليل موضوعى .

٢ — التاريخ باعتباره فنا (٧) :

يرى بعض العلماء أن من الصعب أن يعد التاريخ علما ، وأن من الأوفق أن يعد فنا من الفنون وخاصة انه يقدم لنا تعبيرات وأوصافا للأحوال التى جرت فيه كما يحتاج الى خيال الشاعر وبراعة الكاتب حتى يبعث الحياة فى عظام الأحداث التاريخية اليابسة المجردة ويضعها فى ثوبها اللائق بها (٨) وخاصة اذا لاحظنا أن الوثائق التاريخية لا تعطينا صورة سينمائية عن الحوادث التاريخية ، وانما هى صور متناثرة بين بعضها وبعض كثير من عدم الارتباط والجفاف والاختلال والنقص ، وعمل المؤرخ الاساسى هو اكمال كل نقص وسد كل ثغرة فى الوثائق التاريخية ، ومن هنا كان التاريخ — الى حد كبير — يقوم على الفن ، وعلى موهبة المؤرخ الخاصة التى يستطيع بها تشييد واحياء الماضى بكل ما كان عليه (٩) وملء كل الثغرات الفارغة واعطاء المضمونات لكل القوالب الجوفاء بحيث يصبح لها الاثر الفعال فى عالمنا المعاصر .

وفى الحقيقة أن هذا الرأى مع وجاهته يصعب الاتفاق معه حول انتفاء صفة العلمية عن التاريخ وخاصة ان احدى الوظائف الاساسية للتاريخ هى الانصاف .

حقيقة أن الكتابة التاريخية يمكن أن تتأثر بثقافة المؤرخ وحسه ، وشخصيته ، ولكن هذا لا يمكن أن يصل به الى الابتعاد عن ابراز الحقيقة التى هى احدى سمات العلم الرئيسية ، والهدف الأسمى الذى يسعى من أجله المؤرخون ، فطبيعة البحث العلمى تتطلب الموضوعية وهذا يصعب تحققه فى الفن .

---

(٧) ظلت كلمة فن فى العصور الوسطى تعنى الحرفة أو الصنعة ثم تبدلت فى عصر النهضة واصبحت تعنى الفنون الجميلة .

(٨) هرنشو : علم التاريخ — ترجمة عبد الحميد العبادى ، القاهرة، لجنة التاليف والترجمة ١٩٣٧ ص ٤ .

(٩) د. عبد الرحمن بدوى : مناهج البحث العلمى ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٧٧ ص ٢١٩ .

والخلاصة انه اذا كان الفن لا يخلو من الفكر ، ولا يمكن أن يخلو منه اذا كان فنا انسانيا يعبر عن الشخصية الانسانية التى يحاول المؤرخ أن يدرس ادوارها فان وظيفة الفنان تختلف عن وظيفة المؤرخ فى الكثير من الأمور ، وان كانت تتفق معها فى بعضها ، فالفنان يقوم بتوصيل العواطف الى الآخرين اعنى انه الجسر الذى تعبر عليه العاطفة ، ومن هنا فان ذاتية الفنان تطغى دائما على موضوعية البحث العلمى .

٣ — التاريخ باعتباره ادبا :

يرى أصحاب هذا الرأى أن التاريخ لا يستطيع أن يعتمد على مناهج البحث العلمى الخالص وحدها ، وانما هو مضطر الى تحرى جمال الأسلوب وبث روح المؤرخ الشخصية فى بحثه والتأثير فى الناس بمأثور الكلام والتعبير عن أفكارهم وعواطفهم وأمانيهم عن طريق كتابة القصص والروايات عنهم ثم صهرها وصبها فى قالب أدبى جذاب . هذا الى جانب أن تاريخ الشعوب ذو علاقة بالأدب الذى يعد بمثابة مرآة للعصر ، ودفة السفينة بالنسبة له ، وان المؤرخ لا يمكنه أن ينتج عملا ذا قيمة الا اذا كان مرهف الاحساس قوى العاطفة حتى يستطيع أن يدرك عواطف الآخرين . وفى الحقيقة أن هذا الاتجاه صحيح الى حد ما فالأدب المصرى القديم مثلا يساعد الباحث على فهم نواح عديدة من الحياة المصرية القديمة ، والتاريخ الايطالى خلال عصر النهضة يصعب فهمه دون الرجوع الى آثار دانتى الأدبية ، ومع ذلك فان تأكيد الصفة العلمية للتاريخ تحظى بالاهتمام الأول حتى صار الابتعاد عن السجع والألفاظ الغريبة والمعانى المبتذلة التى تستعمل للزينة من سمات المؤرخين المعاصرين ، هذا الى جانب أن وظيفة المؤرخ الأولى تنحصر فى تمحيص الأحداث وربطها وتحليلها وان يكن ذلك فى أسلوب أدبى جميل . ومع كل ذلك يمكن القول بأن المؤرخ الناجح هو الذى يجمع بين العلم الخالص والذوق الأدبى الرفيع فيمكنه ان يتذوق الشعر ليتفهم ملكة الابتكار والابداع عند الشعراء ، ويلم بمذاهب النقد الأدبى وآثار الأدباء لكن دون ان يتخلى عن منهج المؤرخ الذى يبحث عن الحقيقة قبل كل شىء ، وخاصة أن صب التاريخ فى قوالب علمية جافة قد يكون عقيما وجديا . ولكى تتضح الصورة حول هذا الموضوع المهم نذكر أن مرحلة التأليف التأريخى تتكون من سلسلة

حلقات تبدأ برغبة أولية لدى الباحث فى اختيار موضوع معين ، ثم يبدأ فى البحث عن المصادر المتعلقة بموضوعه ثم تتلو عملية جمع المصادر عملية النقد والتمحيص لها وهى أشبه شيء بعمل القاضى الذى يأتى بالشهود والرواة فيستنطقهم ، ويدقق فى شهاداتهم ، ويحقق فى افاداتهم ثم يستند الى نتيجة عمله وتحقيقه فى الحكم على العصر الذى يدرسه .

وهذه الأحكام التى يطلقها المؤرخ على الحوادث هى الحقائق المفردة التى تتبين له من الماضى ، وهى أشبه شيء بالحجارة المتفرقة التى تحتاج الى جمع ورصف وتركيب ليكون البناء متكاملا ، ولكن كثيرا ما يكون بعض هذه الحجارة مفقودا بسبب ضياع الوثائق فتظهر فجوات تدفع المؤرخ الى الاجتهاد والقياس لسدها ، لذلك يجب أن يتصف بالحذر وتجنب الخيال والتكهن الذى يبعد الباحث عن استخراج حقيقة الماضى بكليتها وجزئياتها

أما المرحلة الأخيرة من العمل التأريخى فهى مرحلة ادبية فنية يلجأ اليها المؤرخ عندما يعمد الى عرض ما توصل اليه ونشره بين الناس ، وهنا تتجلى ملكة المؤرخ فى حسن الأداء ، وروعة التعبير . ومعنى ذلك أن التأريخ علم من حيث تحقيقه ، وفلسفة من حيث ما يحاول من تفهم كلى وربط للأحداث وتعليل للاسباب والنتائج ، كما أنه أدب وفن من حيث العرض والاداء والبيان . وهذا لا يعنى أن صفة التأريخ الأدبية أو الفنية يجب أن تتجاوز صفته العلمية أو تسلبها فالمؤرخ المتميز هو الذى يعرف كيف يكسو العلم الدقيق بالاسلوب الأدبى الرفيع والذوق الفنى المتميز (١٠) .

والخلاصة أن التاريخ علم له أصوله وقوانينه ومناهجه الوصفية والتحليلية التى تقوم على البحث والتمحيص والحصول على الدليل ونبذ ما يدعو الى الشك أو التشكيك حقيقة أنه ليس علما يقوم على الملاحظة مثل الفلك أو على التجارب مثل الكيمياء وانما يقوم على النقد لذلك فهو علم ينسجم بطبيعته الانسانية مع العلوم الاجتماعية الأخرى . وان هذا العلم يمكن معالجته بشيء من الذوق الأدبى ، والأسلوب الفنى بشرط الا يؤثر ذلك فى ابراز الحقيقة التى هى أساس التاريخ وجوهره .

---

(١٠) قسطنطين زريق : المرجع السابق ص ٦٩ .

ثانيا : المنهج الاستردادى فى التاريخ :

الوقائع التاريخية تحدث مرة واحدة ولا تتكرر فى حين يتكون العلم من حقائق قابلة للتكرار ، ويرجع ذلك الى ان التاريخ يقوم على الزمان الذى يتميز بعدم القابلية للاعادة او التراجع ، وخاصة أن صانعى احداثه يموتون ، وأزمانهم تتغير أى : انه لا يرد للحاضر شىء قد حدث فى الماضى وانه لا يمكن التوصل الى قوانين ثابتة تحكم حركة التاريخ . فمهمة علم التاريخ تقوم بوظيفة مضادة لفعل التاريخ هى انه يحاول أن يسترد ما كان فى الزمان لا ليتحقق فعليا فى مجرى الأحداث بل يحاول أن يستعيد فى الذهن شكلا من داخل عمق الماضى حدث فى مجرى الزمان . وأن يتصور مجرى هذه الأحداث وخاصة أن التاريخ الحق هو ذلك الذى يستطيع احياء تجارب الماضى ، ويربط بين ظواهره المختلفة كما حدثت ولكن فى نوع من التخيل غير المبتدع ، ولكنه التخيل الذى يقوم على أساس ما خلفته الأحداث الماضية من آثار [١١] . وخاصة ان ما كان لا يمكن أن يسترد بأى حال أو تعاد أحداثه دائما فى صورة مطابقة وانما يمكن أن يستعاد نظريا بنوع من التركيب ابتداء مما خلفه من وقائع يكون قد دونها على الآثار أو الوثائق فيستعين بها الذهن أحيانا والخيال المبتدع احيانا أخرى . وفى تاريخنا ذخيرة من الأحداث الجسام التى تمدنا بالعبر والعظات .

وقد أوحى القرآن الكريم ، كما أوحت الأحاديث النبوية الشريفة بفحوى وأسس المنهج الاستردادى ، وبالأسلوب القصصى ، وبالاخبار عن أحوال الأمم السالفة ، وقصصهم مع الأنبياء قال تعالى « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ، وقد آتيناك من لدنا ذكرا » [١٢] ، وقال أيضا « ذلك من

---

(١١) عبد الرحمن بدوى : المرجع السابق ص ١٨٣ .

(١٢) سورة طه : الآية ٩٩ .

أنباء الغيب نوحيه اليك » [١٣] ، وقال أيضا « ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون » [١٤] .

وقد عززت السيرة النبوية أيضا بلورة أسلوب الاسترداد فى النقد التاريخى لذلك ، فان الاهتمام بدراسة الاحاديث النبوية والقواعد المتسعة للتدقيق فى درجة صحتها جعل المؤرخين المسلمين يطبقون عليها المنهج الاستردادى فى رواية الحديث ، ودراسة السنة ، وطبقات الرواة ، وصفاتهم حتى يتأكدوا من مقدار صحة الرواية .

ثالثا : موضوعات التاريخ :

يتكون التاريخ من ملايين الحوادث الخاصة بالمجتمعات ، والمجتمع بحركاته ومنازعاته واخطائه ومآثره وافراده تتبوأ السياسة فيه مركزا كبيرا فالسياسة تتألف من سلوك الناس العام بين الجماعات .

وعلى هذا كان التاريخ السياسى هو العمود الفقرى للتاريخ كما أثبت التاريخ الاقتصادى والاجتماعى حقهما فى تبوء مكانة سامية .

وبما أن التاريخ السياسى هو سجل للاحداث العامة فان تاريخ حياة الزعماء الذين شاركوا فيها والذين كثيرا ما صنعوها هو نهج يمهد لدراسة تلك الاحداث . كما أن التاريخ الاقتصادى يعرفنا كيف يحصل مجتمع على رزقه فيعنى بالطرق والوسائل التى بها يكسب المجتمع رزقه حيث ان مجاله دراسة نظام الأرض وأساليب الزراعة والصناعة والتجارة ثم أعمال المجتمع ومنظماته المالية ومواصلاته وظروف العمل وطرق تنظيمه .

وبمعنى آخر يمكن القول أن التاريخ الاقتصادى هو تاريخ النشاط الانسانى أى استفادة الانسان من بيئته يستخدمها فى معاشه وفى توفير المطالب المادية التى ترتبط بذلك المعاش .

---

(١٣) سورة يوسف : الآية ١٠٢ .

(١٤) سورة الأنعام : الآية ٤٢ .

أما التاريخ الاجتماعى فيشمل العلاقات الانسانية والاقتصادية بين بعض الطبقات المختلفة وبعضها وطبيعة حياة الأسرة والحياة المنزلية وظروف العمل والفراغ وموقف الناس من الطبيعة وثقافة كل عصر من حيث الأدب والموسيقى والعلم والفكر .

ويمكن اجمالا القول انه بدون التاريخ الاجتماعى يصبح التاريخ الاقتصادى عقيما والتاريخ السياسى غير قابل للاستيعاب[١٥] .

وعلى كل حال فانه مازالت كثير من الحوادث التاريخية غامضة لدينا وذلك لأنها لم تدون فى وقتها أو أنها دونت وفقدت وثائقها . يضاف الى ذلك ان تسجيل التاريخ يقتصر على الدمار والنكبات أما أخبار السلم والطمأنينة فلم يسجل الكثير منه مما جعل التاريخ يظهر فى صورة مجموعة صور جرائم وكوارث ليس الا ، تثيرها خرافات سخيفة وعادات جهوله .

رابعا : فلسفة التاريخ :

اختلفت الآراء حول العوامل المؤثرة فى تكوين التاريخ وتوجيهه فماركس يقول بتفسير التاريخ الاقتصادى وفردريك رتزل بتفسيره الجغرافى وهيجل بتفسيره العقلى وهناك من يفسره لاهوتيا ولكل من هذه المذاهب أقوال تؤيده وأخرى تزيفه أو تقلل من شأنه .

يذكر ماركس أن العامل الأساسى فى التاريخ فى كل زمن هو العامل الاقتصادى فطرائق الانتاج والتوزيع وقسمة الثروة واستهلاكها وعلاقة العامل بمستخدمه ، والحرب بين طبقات الفقراء والاغنياء هذه هى الشئون التى تعين فى النهاية كل وجوه الحياة دينية وادبية وفلسفية وعلمية واخلاقية وفنية فشئون الانتاج هى نسيج المجتمع الاقتصادى وهى الاساس الصحيح الذى عليه يشاد بناء المجتمع واليه تنسب صور الشعور الاجتماعى المقررة .

---

(١٥) راوس : التاريخ أثره وفائدته — ترجمة مجد الدين حفنى ناصف القاهرة سلسلة الألف كتاب ص : ٦٠ — ٦٨ .

ولا يقسم ماركس التاريخ الى قديم ووسيط وحديث بل يقسمه الى عصر الراعى وعصر الصيد ، وعصر الزراعة ، وعصر الصناعة اليدوية وعصر الصناعة الآلية كما انه يغزو كل الحوادث الكبرى التى حدثت فى العالم الى العوامل الاقتصادية .

أما عن أصحاب نظرية تفسير التاريخ جغرافيا فيرون أن مقدار المطر يحدد مصير الأمم وان الجفاف يؤدى الى الهجرات وان الهجرات والفتوحات وقيام الامبراطوريات وانحطاطها يعود الى دورات الكلف الشمسية ، كما أن للانهار تأثيرا فى اقامة التمدن على ضفافها وان صعوبة الحياة فى المناطق الاستوائية واعتدال الحرارة فى الاقاليم المعتدلة وانتشار البرودة فى مناطق الشمال لها تأثير على العمل والميل للثقافة والفن أو ما شاكل ذلك .

وهناك رأى بتفسير التاريخ انثروبولوجيا فيرى اصحابه اهمية انواع السلالات فى تفسير التاريخ فيعزون العبقرية الى الوراثة ، ويرى بعضهم ان الالمان اعظم شعب متمدين عرفه التاريخ ، بينما يرى البعض الآخر بأنه لا يوجد جنس تام النقاوة بل قد مازج كل دم أصول جمه .

ويذكر هيجل أن عامل العقل الانسانى من أهم العوامل المكونة للتاريخ فالتاريخ هو تاريخ الاختراعات ، كما ان وراء التغيرات الاقتصادية تغيرات ميكانيكية ووراء هذه تقدم العلم الطبيعى وما يتبعه من تفكير العالم المتميز ، وقد لا يكون عظماء الرجال اسباب الحوادث كالحروب مثلا ولكنهم ولا ريب اثبات الاختراعات والاكتشافات التى تعيد بناء العالم ، ويرى أن للتاريخ ثلاث أدوار .

١ — الدور الشرقى .

٢ — الدور اليونانى والرومانى .

٣ — الدور الحديث .

أما عن تفسير التاريخ لاهوتيا فيقول اصحابه :

ان التاريخ هو رواية ارادة الله المقدسة ، وكل حادث فيه هو درس تمليه السماء على الناس وان التاريخ هو مظهر العناية الالهية .

خامسا : التاريخ بين الموضوعية والذاتية :

الموضوعية فى العلم تعنى النزاهة فى القصد ، والتجرد من العواطف الذاتية ، والتحيز الشخصى ، والدقة فى فحص القضايا المطروحة والأمانة العقلية والاستنتاج السليم ، والقدرة على تخير البدائل الممكنة للتفسير ، والشجاعة فى متابعة الحجة الى نتائجها المنطقية التى تعبر عن الحقيقة . أما عن الذاتية فتعنى انعكاس ذاتية المؤرخ وأيديولوجيته ، وانتماءاته الفكرية والعقائدية على تقييمه لفترة تاريخية معينة ، وطغيان ذلك على عملية الكتابة التاريخية دون الالتزام بالموضوعية أو التثبت من صحة الوثائق التى ينقل عنها ، والعلم يرفض ذلك ويعده أشبه بمحرمات الدين وعلى الرغم من الحيدة العلمية ، والدعوى الى عدم التحيز التى تتردد على السنة المؤرخين ، فاننا نرى أن آراء المؤرخين فى بعض الأحيان تختلف حول الموضوع التاريخى الواحد ، وتصطبغ بكثير من الالوان ، ويروى بعدة أشكال يجتمع فيها الأبيض والأسود فى آن واحد اذ ينظر أحدهم اليه من زاوية خاصة قد تختلف فى تفسيرها عن رأى آخر ، وقد يتفقون فى كثير من الأحيان حول بعض القضايا الرئيسية وان اختلفت بعض تفسيراتهم ، وهذا فى حد ذاته دليل واضح على وجود العنصر الذاتى فى التفكير التاريخى . يضاف الى ذلك أن الدراسات التاريخية غالبا ما تكون موضع تعديل وتبديل وخاصة اذا ظهرت وثائق تحوى معلومات جديدة قد تقلب الأمور راسا على عقب ، وتغير أفكارا ربما توارثها الآباء عن الأجداد ، والأبناء عن الآباء وهذا يعنى أن الموضوعية فى الدراسة التاريخية تختلف عنها فى العلوم الطبيعية التى تتميز غالبا بالثبات فنتائج العلوم الطبيعية ثابتة فى عصور معينة ، وان كانت قوانين الطبيعة أحيانا ما تكون نسبية ومتطورة ، أى أن العالم الطبيعى لا يستقيم بدون حتمية Determinism تجعل ظواهره ضرورية محتمة الوقوع ، فى حين يتدخل فى الدراسات التاريخية عوامل كثيرة ومتشابكة .

ويرجع اختلاف وجهات نظر المؤرخين حول الموضوع الواحد الى اختلاف الثقافة والميول وتعدد القوميات والأديان ، والى جو الحرية الذى يعيش فيه كل منهم والى البيئة التى تؤثر فى أفكارهم ، والى اختلاف

الخبرات بينهم ، والى القوى الاجتماعية التى ينتمى اليها كل منهم هذا الى جانب روح العصر الذى كتب فيه المؤرخ الحادثة . فمما لاشك فيه ان كل هذه العوامل تتدخل فى تحديد أهمية الظاهـــرة التاريخية أو عدم أهميتها بالنسبة للمؤرخ ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك :

١ — عندما منع بونابرت الحجاج المصريين من السفر الى مكة لاداء فريضة الحج خلال الاحتلال الفرنسى لمصر ١٧٩٨ م رأى المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى أن ماجد جد خطير اذ لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، وأن أركان الدنيا اهتزت لهذا الأمر لذلك يجب أن تعد السنة التى حدث فيها ذلك العمل من السنوات المشهودة فى التاريخ على حين نجد المؤرخ الانجليزى « أرنولد توينبى » يرى أن ما حدث ليس الا حادثة محلية لا تستحق هذه الضجة وخاصة أنها لم يكن لها سوى تأثير محدود اقتصر على حدود البلدان الاسلامية . وهذا يعنى أن كلا من المؤرخين لم يتحرر من عقيدته ، وقيمه ، وعاداته فالمؤرخ المسلم يرى فيما حدث امرا خطيرا لأنه يمس عقيدته وقيمه على حين عد المؤرخ غير المسلم ماحدث مجرد أمر عادى لا يستحق كل هذه الضجة .

٢ — لايتوقع صاحب أى ثقافة ان يقوم المؤرخ الرأسمالى بتفســـير التـــاريخ تفســـيرا اشتراكيا ، ولا من المؤرخ الاشـــتراكى ان يفسر التاريخ تفسيرا رأسماليا لان ذلك معناه الوقوف ضد النظرة التى تفرضها مصالح كل منهما الذاتية ، ومن هنا نجد كلا منهما يدافع عن وجهة نظره ، ويقيم عليها احيانا تحليلاته المتميزة بما تنطوى عليه من توجيه والتزام وتجاوز قد يخرج المؤرخ فى معظم الأحيان عن الموضوعية فتتصادم أفكاره المفترض أنها علمية مع الحقيقة التى هى الهدف المنشود للعلم ، وعلى سبيل المثال نذكر أن المؤرخ الرأسمالى يرى أن الاستعمار كان الطريق الأمثل لتحقيق تقدم شعوب المستعمرات ، وان مسيرة التقدم هى رسالة الغرب التاريخية ، فى حين يركز المؤرخ الاشتراكى على النهب والاستغلال والسيطرة الوحشية التى اتبعتها الدول الاستعمارية فى مستعمراتها ، كما أن المؤرخ الرأسمالى يردد دائما فى كتاباته المفهومات المثالية الافتراضية ، ودور الصفوة فى رخاء المجتمع ، على حين نجد المادية التاريخية تلعب دورا حاسما فى فكر المؤرخ

الاشتراكى ، فيرى ان الصراع الطبقى هو العامل الأول والحاسم فى حركة التاريخ .

٣ — المؤرخ فى بعض المجتمعات الشرقية يدافع عن حجاب المراة وعدم اختلاطها بالرجال حرصا على عفافها ، على حين نجد المؤرخ الأوربى يرى عكس ذلك ، ويعد خروج المراة الى المنتديات والحفلات وأماكن اللهو من سمات التحضر والحرية .

٤ — المؤرخون فى المجتمع الواحد قد يختلفون فى تقييم حادثة محددة أو شخصية معينة طبقا لانتماءات كل منهم وعلى سبيل المثال نذكر أن تقييم دور الزعيم المصرى سعد زغلول ظل موضع نقاش وجدل شديدين بين المؤرخين والباحثين المصريين فمنهم من هاجمه بشدة ، ومنهم من كان شديد الاعجاب به وبدوره فى الحياة السياسية المصرية ، وتحول الأمر الى استخدام التاريخ لتصفية حسابات سياسية ، وهذا يجعلنا نتساءل أما يزال تاريخ مصر المعاصر بعيدا عن الالتزام والموضوعية ؟ وهل تفتقد المعايير المحددة لحركة التاريخ فى بلادنا ؟

لقد اكدت ذلك مناقشات « ندوة الالتزام والموضوعية فى كتابة تاريخ مصر المعاصر ١٩١٩ — ١٩٥٢ » التى عقدت بالقاهرة فى الفترة من ٣١ اغسطس الى ٣ سبتمبر ١٩٨٧ ، كما اكدت أن افتقادنا لتلك المعايير ادى الى مضاعفة مانعانيه من بلبلة وتمزق فى الكثير من قضايانا . والسؤال هو : لمصلحة من هذا الاستخفاف بقضايا مصر التاريخية ، واهتزاز صورة المؤرخ المصرى ؟

نأمل أن يكف اولئك الكتاب والباحثين عن استخدام التاريخ لتصفية حسابات سياسية حتى لا يتحول التاريخ من الموضوعية الى الذاتية ، وتصير مسألة التزام المؤرخ بالبحث عن الحقيقة شديدة التعقيد ، وتصير الحيدة التامة فى دراسة التاريخ أمرا يصعب تحقيقه . لذلك فان واجب المؤرخ تفادى الجانب الذاتى أو الشخصى والاتجاه بقدر الامكان الى البحث عن الحقيقة المجردة الخالية من كل أشكال التحيز أو التعصب ، فمن السفه تحقير معتقدات الآخرين أو السخرية منها ، ومن الخير أن تتسع آفاق المؤرخ

ليرى وطنه جزءا من عالم يتأثر به ويؤثر فيه . ونتيجة لذلك فانه يمكن حصر الموضوعية لدى المؤرخ فى أمور عدة منها :

١ — تجنب الوقوع فى الأحكام السطحية ، ومحاولة ادراك الماضى كما كان لاكما نتوهم أنه كان ، أو كما يريده أن يكون .

٢ — البحث عن الأسانيد الصادقة غير المتحيزة وتتبع أفكارها ومعانيها بصدق وموضوعية ، وكشف التشويه والتزييف الحادث فى بعض الموضوعات التاريخية .

٣ — المقارنة بين وجهات النظر المختلفة للمؤرخين الذين عالجوا موضوعا بعينه للاسهام فى بناء جسور اتفاق بين هذه الآراء والحقيقة ، فذلك هو الذى يفرق بين الدراسات التاريخية الجيدة والمؤلفات الأخرى التى يقوم بها صحفيون أو كتاب حزبيون أو ممن لهم اتجاهات أو مواقف فكرية معينة (١٦) وهذا مما يضفى على التاريخ صفة العلمية ، ويثبت أنه علم ولكنه ليس كالعلوم التجريبية التى تقوم على حتمية الوقوع بل هو علم تحليلى يقوم على تفسير الأحداث التاريخية وتوصيفها وتصنيفها دون السعى لوضع قانون ثابت لتفسير بعض ظواهرها ، وخاصة أن العنصر البشرى هو المقوم الأساسى لتقويم هذه الأحداث ، ولابد لنا من اللجوء الى العلوم التى تكشف لنا عن قوانين الطبيعة البشرية لكى نستعين بها على تفسير الأحداث التاريخية .

ومع كل ذلك فلا يمكن أن ينكر أحد أن الذاتية قائمة فى جذور التاريخ لانه فى تكوينه ليس الا علم التجارب البشرية والمعارف الانسانية خاصة وان المؤرخ يعود غالبا الى نفسه بعكس العلوم الطبيعية التى هى دوما بمثابة الخروج المستمر من الذات والحياد المطلق المرتبط بقوانين متفق عليها. ومع ذلك فان أحدا لا يستطيع أن ينكر ان الموضوعية والمنهجية يعدان من الشروط الأساسية للمؤرخ الحقيقى .

---

(16) Walsh : An Introduction to Philosophy of History, London, 1947, p. 104 .

سادسا : الهدف من دراسة التاريخ :

الهدف من دراسة التاريخ هى معـــرفة الانسان بنفسه :

وقيمة التاريخ ترجع الى انه يحيطنا علما بأعمال الانسان فى الماضى وبحقيقـــة هـــذا الانسان [١٧] كما انه يعين على تفهم الأحداث العالمية ، وشـــؤون العصر ومتجهاته يضـــاف الى ذلك انه لا يتناول حياة العظماء من الأفراد وحسب بل هو « يتكون من رواسب حياة ملايين من الرجال والنساء الذين تقل أهميتهم والذين لم يخلفـــوا اســـما بل قدمـــوا فقط حصـــة من المشاركة [١٨] » .

ان التاريخ يهيىء للانسان مجالات من التجارب واسعة يستطيع أن يبنى عليها احكامه ، ولعلها فى الواقع كل التجارب البشرية التى نسمع بها ولقد عبر عن ذلك أحد المؤرخين بقوله « التاريخ هو السياسة الماضـــية والسياسة هى التاريخ الحاضر [١٩] » وكلما اتسعت قراءاتنا التاريخيـــة ونضج حكمنا على الأحداث وقفنا على منجزات عظيمة واخطاء جسيمة مما يوسع دائرة معلوماتنا الى حد كبير ، ويمدنا بمادة موفورة لتحليل الدوافع أو البواعث .

ان التاريخ يجعلنا نفهم الحاضر من حيث انه يفسر أصول الوضـــــع الحاضر للأمور كما أنه أداة للثقافة العقلية [٢٠] ، فقيمته اذن تنحصر فى تنوير حاضرنا ومساعدتنا على السير فى رحاب المستقبل .

---

(١٧) كولنجوود : المرجع السابق ص ٤٣ — ٤٤ .
(١٨) راوس : المرجع السابق ص ١٥ .
(١٩) راوس ص ١٦ .
(٢٠) لانجلو اسينبوبوس : المدخل الى الدراسات التاريخية — ترجمة عبد الرحمن بدوى ، الكويت ، وكالة المطبوعات ص ٢٥٠ .